بقلم الوجدان

وتوارى عن الأنظار

من واقع سورية : المجزرة

الأخ ن. أبو جهاد

أغمض عينيه للمرة العاشرة وهو يحاول جهده أن يدفع عن نفسه الصور الحيّة التي تلاحقه وتأبى أن تتركه للرقاد ، فيتقلّب في فراشه ذات اليمين وذات اليسار ، ويشدّ جفنيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .. دون جدوى

وكيف ينام وقد حملقت فيه عينا الخطيب الجاحظتان بعد أن ضربوه في المسجد ، وساقوه أمامهم من لحيتـــه ، إذ تجرّأ وتحدّث في خطبته عن الظلم والظالمين ، والجهاد والمجاهدين ؟ ..

وكيف ينام وفي سمعه توسّلات أمّ أسامة لاحقة برجال المخابرات يدفعون بكعوب البنادق فتاها وفاء ، فترجوهم أن يأخذوها هي ويتركوا ابنتها .. دون جدوى ، لن ترى ابنتها إلاّ إذا ظهر أسامة من جديد وسلّم نفسه للطغاة ؟ ..

وفاء .. كان يلعب معها في الصغر ، وكانت بأخلاقها وصيتها في الحيّ أمل شبابه المبكّر ، أن يتزوّج بها حـــال إنهائه دراسته .. أين هي ؟ .. ماذا فعلوا بها ؟ .. متى تعود ؟ ..

ويحبس دمعة حرّى كادت تنفجر من عينيه ، ويتقلّب في فراشه من جديد عساه يغفو .. وهيهات يغفو

ولم يدر ، هل تغلب على أرقه فنام فأوقظوه ، أم أنهم حملوه نائماً من فراشه وساقوه .. فالآلام من ضرباتهم تحرق كلّ موضع في جسده ، وهم يدفعونه بأيديهم وبنادقهم وسط الظلام الدامس .. إلى أن ارتطمـــت ســـاقه بـــسيارة حشروه فيها لا يقدر على الكلام ولا الحركة . وحرّك عينيه عساه يرى شيئاً عبر الظلام ، ومضى وقت طويل قبل أن يتبيّن بعض المعالم من نافذة السيارة .. إنّها الطريق الصحراوية ، طريق تدمر .. أين يـــذهبون بـــه ؟ .. إلى ســـجن تدمر ؟ .. أما اقتحموه قبل أيام وقتلوا كلّ من فيه ؟ .. أم أنّها شائعة من الشائعات ؟ .. ليته يجرؤ على الكلام ، على السؤال عمّا جناه ، لكنّه يشعر بشلل مفاصله ولسانه على السواء .. وتمتم قلبه ببضع آيات يحفظها ، فأخطأ فيها مرّة بعد مرّة ، وعاود تكرارها .. إنّه عاجز عن التفكير .. عاجز حتى عن الإحساس بالزمن

ووجد نفسه من جديد وسط ظلام دامس ، مرمياً على الأرض الصلبة ، ورفع رأسه فارتطم بالسقف ، وأحــسّ بالدم الحارّ يسيل على وجهه فلم يبال به بل جثا على ركبتيه وزحف يتحسّس المكان ، وما لبث أن صادفت يــداه شيئاً أدرك أنّه جسد بشريّ .. هزّه فلم يتحرّك ، وشرع يتلمّسه فأحسّ بالبرودة تسرّبت إلى أوصاله قليلاً ، وعلم أنّه أمام جثة إنسان لم يمض زمن طويل على موته ، وأراد أن يصيح فلم تصدر عن حلقه سوى حشرجة أشبه باســتغاثة غريق في الماء .. وخيّل إليه أنّه يسمع صدى صوته في المكان ، لكنّ الصدى تردّد ثانية ، وتبيّن فيــه أنينــاً خافتــاً ، فأسرع في زحفه كالمجنون في كلّ اتجاه ، و لم يستطع في الظلام رؤية صاحب الأنين ، لكنّه وصل إليه وبذل كلّ مــا بقي له من قوّة ليسأل :

– من أنت ؟ .. أين نحن ؟ ..

وأجابه صوت ضعيف :

– أنا محمود .. محمود من حمص

– وأين نحن ؟ ..

– ألا تدري ؟ .. أنت في تدمر .. في السجن الجديد

وساد الصمت لحظات .. كيف ؟ .. لماذا ؟ .. متى جاؤوا به ؟ .. لم يعد يعي شيئاً ممّا كان ، و لم يعد يرى سوى صوراً متلاحقة .. انفجارات هنا وهناك ، رجال مسلّحون يقتحمون المساجد والمتاجر والبيوت ، جماعات تتــهامس في كلّ مكان ، ضربات تنهال على جسده ، شيوخ يجمّعون وتطلق عليهم النار في عرض الشارع ، أجساد معلّقــة على أعواد المشانق .. ووفاء تضغط بكلتا يديها على حجابها تخشى انفلاته والبنادق تدفعها إلى السيارة .. لقد اعتقلوه إذن مثلها ، هل هي هنا أيضاً في السجن ؟ .. سجن تدمر ، ولماذا اعتقلوه ؟ .. إنه ليس من الإخوان المسلمين ، وكل ما يعرفه عن الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين يعرفه عامة الشعب .. فأية أسرار يريدون انتزاعها منه بالتعــذيب ؟ .. واستجمع قوته من جديد ليسأل صاحبه في السجن :

– علام تئنّ ؟ .. ما الذي أصابك ؟ ..

– أنت جديد على ما يبدو ! .. ستعلم عمّا قريب ، هم يسمّون ذلك تحقيقا ..

وأحسّ بدوار شديد ، كأنّما هوت ضربة على رأسه من حيث لا يدري ، فأغمض عينيه ، وحاول رفع ظهره ، فخذلته قواه ، ودارت الدنيا به ، فكأنّه انتقل إلى عالم آخر .. حتى إذا فتح عينيه من جديــد رأى وجوهــاً أشــبه بالشياطين تحملق به ، وسمع أصواتاً اختلط بعضها ببعض تسأله :

– اسمك ؟ .. – عمرك ؟ .. – متى انتسبت لعصابة المجرمين ؟ .. – أين تخفــون الأســلحة ؟ .. – مــع مــن تعمل ؟ .. وما اسم رئيسك ؟ ..

لا يدري من أين يأتي السؤال ، ولا يدري من أين تقع عليه الضربات ، ولا يستطيع التمييز بينها ، هل هذه ضربة هراوة غليظة ؟ .. أم هي بعصا حديدية حامية ؟ .. أم هي بسلك حديدي شائك ؟ .. يداه مشدودتان بحبال غليظة.. والرعدة تسري في أوصاله ويدرك أنّها الكهرباء لكنّه لا يعلم لها مصدراً ، ولا يعلم كيف ينتقلون به من مكــان إلى مكان ، الوجوه الشيطانية جديدة عليه باستمرار ، والأصوات مرعبة .. مرعبة ، وهو لو يعلم إجابة لمــا اســتطاع الإجابة ، فقد انعقد لسانه عن الكلام ، وكفّ عقله عن التفكير ..

* * *

ورأى نفسه فجأة وسط جمع كبير ، معظمهم في ثياب ممزقة ، لكنّه يستطيع رؤيتهم هذه المرّة .. ويرى فيهم فتية طالما رآهم في مدرسته أو حيّه ، وشباباً كان يلقاهم في كلّ صلاة جمعة .. وهذا .. هذا هو خطيب المسجد الــذي قطعوا عليه خطبته وهو يتلو قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [البروج : 8] ، وخيّل إليه أنّه يرى وفاء في الجمع الكبير ، لكنّه لا يستطيع الوصول إليها .. وهؤلاء .. أليسوا هــم الــشيوخ الذين قُتلوا في حمص أمام عينيه ؟ .. كيف أتوا إلى هذا المكان ؟ .. هل أصبح في عالم الآخرة ؟ .. إنّه عــاجز عــن التمييز بين ما جرى وما يجري ، بين الماضي والحاضر .. لكأنّما تجمّعت عينيه دفعة واحدة .. هل يتوهّم ما يراه ؟ .. أم أنّه فقد عقله في هذا السجن الرهيب ؟ وعلام يجلس الجميع بلا حراك ؟ .. صامتون كالجثث الهامدة لولا العيــون المتحرّكة في محاجرها .. وأين تلك الوجوه الرهيبة التي كانت تحملق به ؟ .. والأصوات المرعبة التي كانت تسأله ؟ ..

وأراد النهوض من مكانه ، فلم يستطع حتى تحريك قدميه أو ذراعيه ، فبقي جالساً كالمشلول ، ناظراً حولــه في ذهول ..

ورأى فجأة شيئاً يلقى عبر النافذة ، وأدرك لأوّل مرّة أنّ حوله نوافذ يدخل النور منها .. وتلاحقــت المــشاهد أمامه ، كرات سوداء تلقى عبر النوافذ ، كلاّ .. إنّها قنابل .. قنابل ، وانفجرت القنبلة الأولى بين الأجساد المتمدّدة بلا حراك ، كالأموات ، وليسوا بأموات ، صراخهم يعلو على صوت الانفجارات .. بل لم يكونوا أمواتاً إلى تلــك اللحظة فقط ، وهو يرى أشلاءهم تتطاير في كلّ اتجاه ، علام لا تصيبه شظية وينتهي .. يستريح ممّا يراه ؟ عــلام لا يقوى على إغماض عينيه ؟ .. إنّه يراهم جميعاً أمامه ، جميع من عرفهم في حياته ، أجساداً تتمزّق ، وأوصالاً تتناثر ، يراهم ولا يقوى حتى على الصياح .. ويلمح بينهم وفاء .. رأى وجهها باسماً كما لم يره في يوم من الأيام ، لكنّهــا طفلة صغيرة ، كما كان يعرفها في صغره ، طفلة .. وعلى رأسها حجاب تمسكه بكلتا يديها ، وتبتسم في وجهه .. ويرى في وهج النار قذيفة تصيبها .. لا تزال تبتسم .. وتفصل القذيفة رأسها عن جسدها فيسقط بين يديه ، وهــو عاجز عن الوصول إليه

وفجأة .. ساد الهدوء من جديد

وبقي محملقاً في الفراغ زمناً مرّ عليه كالدهر طويل .. لا شيء يتحرّك حوله ، إنّما يصل إلى سمعه صوت صاحبه في السجن يردّد بلا انقطاع :

– أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله

واختلط الصوت بأنين بدأ خافتاً ثم ازداد ارتفاعه حتى كاد يصمّ أذنيه .. ثمّ غلبت عليه أصوات أقـــدام بأحذيـــة غليظة ، طالما سمعها في الحيّ الذي يسكن فيه .. إنّها أحذيتهم ، وقد ظهروا من جديـــد برشّاشـــاتهم المـــشرعة في أيديهم ، ولكن يخيّل إليه أنّ رؤوسهم غير الرؤوس التي كان يراها ، ووجوههم غير الوجوه التي يعرفها .. إنّه لا يرى حوله بشراً ، بل أجساد بشر ووجوه ذئاب .. ثمّ لم يعد يرى شيئاً حوله إلاّ فوهة رشاش تملأ علـــى عينيـــه المكـــان كلّه .. وتنطلق النار منها إلى صدره فيغمض عينيه

* * *

كلّ شيء ساكن سكون الموت .. لكنّه حيّ ، قد بهر بصره نور يملأ الغرفة .. من أتى به إلى هذا المكان ؟ لكنّـــه يعرف المكان ، إنّه غرفته هو ، وهذا سريره .. وشعر بإعياء شديد في جسمه ، فنظر إلى نفسه باحثـــاً عـــن آثـــار للدماء .. للضربات .. للتعذيب .. للرصاص .. و لم يجد شيئا .. ربّاه .. هل كان هذا كلّه كابوساً رهيبا ؟ ..

وخشي أن يغمض عينيه من جديد ، فقام من سريره إلى النافذة ، ونظر من خلالها ، وتراءى له كلّ ما عاشه في ليلته .. إنّها المجزرة .. مجزرة تدمر التي ارتكبها الطغاة ، وتناقلت أخبارها ألسنة لا تعرف الكذب .. عاشها كابوســـاً ثقيلاً في ليلته .. فكيف عاشها ضحاياها ؟ .. وفكّر لحظة واحدة ، وتمثّل أمامه الكابوس الأكبر الذي يعيشه شـــعبه منذ بدأ عهد الطغيان ، فبدأ يبدّل ملابسه ببطء شديد ، ولمعت في عينيه نظرة عزم وتصميم ، وإن هي إلاّ لحظات ، خرج بعدها من المنـــزل ، وتوارى عن الأنظار .. وأقسم ألاّ يظهر من جديد إلاّ شهيداً مشاركاً في دفـــع ضـــريبة الجهاد ، أو فرداً من الأفراد الذين يكتب لهم أن يحملوا مشعل النصر القريب بيد من حديد